قواعد النقد الأدبي في العربية

للأستاذ محمد ناجي

أتى على العصور الأدبية في اللغة العربية أزمان قويت فيها الروح المعنوية فسالت كما يسيل الماء الصافي، فلم تكترث للّفظ، وغطّت الفكرة على كل شيء فكانت قوية قاهرة وهّاجة تمتو إلى الجباه ويقدرها النقاد، وأتى على اللغة العربية حين آخر خبا فيه بصيص هذه الأفكار، فعمد الكتاب إلى المساحيق والطلاء ليخفوا ضعف أفكارهم بالمحسّنات اللفظية غير الطبعية. ومع أننا في النقد الحديث نحبّذ كلّ التحبيذ الفكرة القوية الساطعة التي هي نوع من الإلهام يتصل بالخلد، ولا يتقيد بزمان ولا بمكان، إلا أننا — مع ذلك — نقدّر كل التقدير القالب الذي تتجلّى فيه الفكرة، إذ أن من توافقهما يخرج الأسلوب الحسن المناسب، ونعرف الأسلوب بأنه حُسن تأدية اللفظ للفكرة التي يحتويها، وكلما كان الأسلوب محسناً في تأدية هذه الفكرة صمد لمعاول النقد الأدبي

وهنالك عناصر كثيرة تكوّن ذلك الأسلوب وتطبعه بطابع خاص، فهناك شخصية الكاتب تفيض في أسلوبه، وهناك «ملامح» تلك الشخصية تتجلى في استعمال ألفاظ خاصة نتوقعها كما نتوقع الدقة الموسيقية دليل الانسجام الموسيقي. ومن يقرأ أسلوب الكاتب الإنجليزي دكنز Dickens يصادف ذلك النوع من خفة الروح تداعبنا من خلال ألفاظه ونكاد ننتظرها قبل أن يقولها، فهي تميز أسلوبه تميزاً تاماً عما عداه

هناك إذن عوامل شتى تتجمع فيما نسميه الأسلوب وتتألف من شخصية الكاتب ومن بيئته، ومن الأفكار المتعارفة في وقته، ومن مجرى الحوادث السياسية والاجتماعية. لكن ما هي القواعد الأدبية والأقيسة التي يمكن أن نحكم بها على الأسلوب كما عرفناه؟

لا شك أن لكل قطعة حسنة الأسلوب جيدة التعبير عن المعنى الكائن خلفها، روحاً خاصاً قد نفهمه؛ وقد لا يمكن مهما حاولنا بأقيستنا أن نعرف نوع الجمال والسحر اللذين فيه، فغاية ما يمكننا أن نقول عنه إنه جميل. ثم هناك الجمّان اللفظي الذي يحوي الفكرة المعنوية، وهذا الذي يمكن أن نطبق عليه أقيستنا الصغيرة. وقد نقف أحياناً مكتوفي الأيدي أمام القطعة الشعرية فلا يمكننا أن نعبر عن الجمال الروحي الذي بها، إلا أننا قد نبسط هذا التأثير بأن نقول: إنه ملك علينا مشاعرنا فحسب وأنه حاز رضانا وإعجابنا. ولما كانت مشاعرنا تنحصر في هذه الحواس الخمس وفي ذلك الشعور الباطن بالجمال الذي نملكه، وفي تلك الأفكار التي تحوي نماذج خاصة نقيس عليها كل جمال نراه، فيمكننا أن نقول: إن القطعة الأدبية تدخل علينا السرور عن طريقين كبيرين: أحدهما عن طريق العين والمرئيات فهي ترسم لنا صورة بارزة وأخيلة قوية ناطقة، وثانيهما عن طريق الأذن بواسطة السحر الموسيقي. فانسجام القطعة الأدبية يعرضها لنقدنا فوق كل شيء عن طريقي البصر والسمع، ثم عن طريق قوة العاطفة والفكرة. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نضع قواعد بسيطة للنقد الأدبي

أولاها اختيار اللفظ الذي يحسن أداء المعنى المقصود. يقولون عن الشاعر أو الناثر المجيد إنه لو انتُزع لفظ من كلامه لما أمكن وضع بديل منه يؤدي نفس المعنى في نفس المكان؛ وتبين مقدرة الكاتب من هذا الاختيار للفظ الذي لا يمكن العبث به ولا التبديل فيه. ومن هنا تتبين قوة أسلوب الكاتب ومرونة ذلك الأسلوب ليفي بالغرض المطلوب منه في كل قطعة على اختلافها، ولتأدية الأغراض المختلفة في القطعة الأدبية

يلي ذلك اختيار الكلمات وتنسيقها تنسيقاً موسيقياً، أو كما يرتب الرسام ألوانه ليخرج لنا الصورة الفنية. ولننظر في قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً) فنرى فيها الانسجام اللفظي البديع الذي لا يتأتى لأي تنسيق سواه أن يرتفع إليه. فقوله «أكملت» تراه يتردد في لفظ «أتممت» وفي لفظ (الرضى) الإلهي، كما يتردد النغم الطيب، فهذا إكمال الدين من جانب البشر، يقابله «إتمام» النعمة من جانب الله، وينتج عنه الرضاء. ثم انظر إلى لفظ «الدين» في الأول و «الدين» في الآخر، ولفظ نعمة في الوسط وهي ترادف آخر للفظ «الدين». ولست أجد أبدع في ترتيب اللفظ من آي القرآن

أما الناحية الثالثة فهى الوزن والقافية فى الشعر . ولست أدرى لماذا أريد أن نتحرر من هذه القوافى التى تتحكم فى أخيلتنا بلا مبرر والتى تلزم الشاعر ترتيباً من الأفكار قد يختل فيه الانسجام ، ويضيع عنده الجمال . ولست أدرى ما الذى يحول بيننا وبين أن نخرج على هذه البحور « الأثرية » التى قيدنا بها الخليل بن أحمد . ولست أدرى لماذا نظل فى الموسيقى الفردية ولا نخرج منها إلى الموسيقى الإجماعية Orchestral Music التى يتكون فيها الجمال الفنى من تضافر أنغام مختلفة لآلات كثيرة تساهم كل منها بنصيبها فى تكوين القطعة . وليس من شك فى أن للبحور الشعرية موسيقى خاصة، ولكن موسيقى كل بحر إنما هى موسيقى فردية ، فلنجعل للقافية وللوزن مكانهما فى الشعر ولكن يكون أوسع من مكان الترجيع المعل فى الموسيقى الفردية . وهناك إلى جانب هذا تمثيل الصوت بحيث يؤدى المعنى ويسمى Onomatopœia ، وقد نظم تنيسون Tennyson مقطوعة شعرية عن البحر ، تتخال وأنت تقرأها أنك تسمع صوت جرجرة البحر وصخب الأمواج ، وقد تم للشاعر ذلك بانتخاب أحرف خاصة .

ثم المجاز والتشبيه ، وهما كنان ينبغى أن نجعلهما يخدمان الفكرة لا أن نخدمهما، فهناك مواقف نحتاج فيها إلى التشبيه ، ولا يمكن فهمها بدونه ، خاصة إذا كان المعنى المراد تأديته إنما يقرب للذهن إن نحن ألبسناه صورة خاصة من الشبه .

أما الناحية الأخيرة من نواحى النقد فهى التأثير الفنى الإجمالى

لكن ما هو هذا التأثير الفنى ؟ وإخالنى أرى أولئك الذين ينتخبون ملكات الجمال ، فيعمدون إلى قياس التناسب الجسدى لمعرفة التناسق الجمالى ، يسألون أنفسهم نفس السؤال : ما هو الأثر الإجمالى الذى يعطيه هذا التناسق الجسدى فى مجموعه ؟ وفى اعتقادى أن الإجابة على هذا السؤال تتوقف فى النهاية على تمييز هذا المجموع عن ذلك . إن لكل قوم ولكل زمان نماذج خاصة للجمال ، وقد يفهم كل من الجمال بقدر ما توارثه من صور الجمال فى ذهنه أو بقدر ما يصبو إليه فى زمنه .

قد يقرأ القارئ قطعة ثم يعود إليها فيفهم منها غير ما فهمه فى المرة السالفة . ولشكسبير بعض قطع كلما قرأتها تبين لك معنى جديد ، فكأنما الكاتب قد ملك ناصية المعانى وهو يكتب إليك من عياء بيانه فتقرأ تعبيره يوماً ما ثم يذهب بك الزمن فتقع فى نفس الظروف والملابسات التى عرضت لذلك الكاتب فتتذكر اللفظ الذى كتبه وترى معنى جديداً

حقاً ما أشق مهمة الناقد وما أوهن قواعد النقد !

محمد ناجى